" قيم الأديان المشتركة والسلام العالمي "

مؤتمر الدوحة الخامس لحوار الأديان

٧ -٩ / مــايـو ٢٠٠٧م

ا.د / أحمد محمد أحمد الطيب

رئيس جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

" قيم الأديان المشتركة والسلام العالمي "

أيها السادة الفضلاء :

نحن ندرك – منذ بداية الأمر – أن الحديث عن " الأديان السماوية " لم يعد هو ذلكم الحديث الذي تسمعه الإنسانية المعاصرة فتصغي إليه ، وتعول على هديه فى تحرى الصواب والخطأ ، والحسن والقبح ، والصدق والكذب ، في أفعالها وتصرفاتها وأحكامها ، ونعلم أن الإنسان – اليوم – وإن كان قد كسب الرهان فى معركته ضد التخلف ، واستطاع أن يحقق طفرة مدهشة فى جميع مجالات التقدم التقني والتكنولوجي والمعلوماتى ، فإنه قد مُني بخسارة روحية وأخلاقية فادحة . وأنه بعد أن أدار ظهره للهدى الإلهي لم يستطع أن يجد له بديلاً يصحح خطواته على الطريق ، ويحجزه عن السقوط فى فوضى الشعور بالفردية والأنانية وتآكل المسؤولية الأخلاقية والتي كادت تفرغ كبرى الثورات الحضارية والتاريخية من كل معنى جميل ، بل كادت تحيل هذا التقدم نفسه إلى تاريخ من الانحرافات التي يختنق بها الإنسان فى الغرب وفي الشرق على السواء .

ولقد كان من سوء الطالع أن تجيئ " الرؤية الحضارية " التي ارتضاها الغرب منهجاً فى تحرير الإنسان من أغلال الماضي وقيوده ، خالية الوفاض من النزعات الروحية ، وفى مقدمتها : نزعة الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر . وأن يؤدى هذا الفراغ إلى مشكلات إنسانية كبرى ، معقدة ومتشابكة ، أصابت المتأمل فى انتشارات هذه الحضارة وزحفها المتغلب ، بشئ غير قليل من الإحباط الممزوج بالخوف والرعب .. وأرجو ألا يُفهم عنى أنني متطير أو متشائم ، ففي هذه القاعة المتألقة التي يعكس كل جزء منها مظهراً من مظاهر التقدم الحضاري ، رجال دين فضلاء من أبناء هذه الحضارة ، أعرفهم ، وأعرف عنهم انزعاجهم من المجهول الذي تخبئه السياسات العالمية المصرة على تجاهل

" الأديان " ودورها المتفرد فى إقرار السلام العالمي وترسيخ قيم الأخوة والمحبة بين الناس .. لست من المتشائمين ، ولكن قراءة الأحداث قراءة أمينة لا تسمح بالتفاؤل ، وإلا فما الذي يحمل سياسة حضارية عظمى على أن تنفق مئات المليارات من الدولارات على تدمير شعب بائس فقير ، وكان فى مقدورها – لو أرادت – أن تنفق عشر معشار هذا المبلغ على تمدين هذا الشعب وتخليصه من براثن القهر والجهل والفقر والمرض ؟! وهذا أحدث الأمثلة والنماذج على تصرف هذه الحضارات وسلوكها الردئ ، الذي يعمل بمشاعر الأنانية والغطرسة ويضرب فى مقتل حقوق الضعفاء والمستضعفين دون شعور بأدنى حرج أو أزمة فى الضمير .

ولقد كنا نظن أن إقصاء " الدين " من البناء الحضاري : المعرفي والنفسي .. خيار ارتضته سياسات الغرب عن اقتناع ، بحسبانه خياراً يحقق لها مصلحتها ومنفعتها ، وأن هذه السياسات ، وهى تختار هذا ، إنما تمارس حقاً خالصاً لا تصادره عليها حضارة أخرى ولا ثقافة تتقاطع مع ثقافتها ، بل ولا الأديان التي رضيت بأن تأوي فى ظل هذه السياسات إلي ركن مهجور من أركان دور العبادة .

وكنا نظن أن الفلسفات اللادينية ، وأنماطها الحضارية أمر غير قابل للتصدير ولا التسويق بين شعوب العالم . وبالقوة – أحياناً – إن لزم الأمر . ولكنا فوجئنا – وللأسف البالغ – بمحاولات فرض هذه الثقافة على الناس ، وبالتدخل السافر فى أدق خصوصيات الآخرين ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد إذن لهان وسهل ، ولكن تجاوزه إلى تأصيل نظريات فلسفية وسياسية كنظرية صراع الحضارات والعولمة وتنميط الثقافة وسياسة المركز والأطراف وكلها سياسات تعيد إلى الأذهان عصور الاستعمار والتسلط وإبادة الآخر .

فى مقابل ذلك تُعلمنا الأديان أن الله قد خلق الناس أحراراً ، وخلقهم مختلفين فى عقائدهم وأفكارهم ومشاعرهم وأديانهم ولغاتهم وأجناسهم وألوانهم .. وأنه لو شاء أن يخلق الناس أمة واحدة لفعل ، لكنه خلقهم مختلفين وضمن

لهم بقاءهم مختلفين حتى آخر لحظة فى عمر الشعوب والجماعات ، وقال فى القرآن الكريم : " وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " ، والنتيجة العملية أنه ليس فى مقدور أمة من الأمم ، ولا حضارة من الحضارات ، كائناً ما كان بطشها وجبروتها وكبرياؤها ، أن ترد الناس جميعاً إلى حضارة واحدة ، أو تصيغهم فى ثقافة معينة ، وأن الحضارة التي تحاول ذلك إنما تحاول تغيير مشيئة الله فى خلقه ، وَاللّهُ – كما يقول القرآن – " غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ " .. ومنطق الأديان لا يعرف تسلط الحضارات بعضها على بعض ، بل يؤكد على : أن العلاقة بين الحضارات المختلفة لو درجت فى هذا الاتجاه المشؤوم ، فإن النتيجة لن تكون – أبداً – سيطرة حضارة على حضارة ، أو سيادة ثقافة على حساب ثقافة أخرى ، وإنما القدر المحتوم – آنئذ – هو إما انهيار الحضارات المتغطرسة أو عودة البشرية كلها إلى حالة من الهمجية والفوضى ، ربما لا يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل .

وواضح من هذه المقارنة السريعة أن منطق الأديان فى علاقة أبناء الحضارات : بعضهم ببعض يتناقض جذرياً مع منطق صراع الحضارات ومنطق نهاية التاريخ ، ومن قبلهما منطق المجتمع الشيوعي ذى الطبقة الواحدة ، الذى تداعت أركانه قبل أن يكتمل بنيانه ، وأن الأديان إنما تعول فى أمر هذه العلاقة على نزعة " التدين " التى هى غريزة وفطرة مشتركة وشعور عام وشائع بين الناس جميعاً ، لم تخل منه أمة من الأمم فى القديم أو الحديث ، فقد أثبتت الحفريات ودراسة الأساطير وعلم مقارنة الأديان – فى الغرب – أن نزعة التدين أقدم – فى تاريخ الإنسان – من كل حضارة مادية ، وأن فكرة " التألية " أو " الألوهية " لم تكن – كما يقول فولتير ورسو – فكرة مصنوعة " اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين وجدوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء " [1] .

**   **   **

1- أنظر د . محمد عبد الله دراز ، الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص 80 وما بعدها دار القلم الكويت 1980 م – 1400هـ .

إن الإنسان المتدين هو المؤهل للإحساس بأخيه الإنسان ، والشعور بالأخوة الإنسانية التى هى أساس القيم الروحية المشتركة بين الأديان ، وهذه الحقيقة شديدة الوضوح فى " الإسلام " الذى أدين به ، والذى يقرر انتساب الناس جميعاً إلى أب واحد وأم واحدة ، ولا يكتفى بذلك بل يقرر الأخوة الدينية بين الإسلام وبين الرسالات الإلهية السابقة عليه ، ويربطه بها ربطاً عضوياً لا ينفصم . سواء كان ذلك على مستوى " الإسلام " كدين أو كتاب مقدس أو نبي مبلغ لهذه الرسالة .. وانظروا – أيها السادة : – كيف كان الإسلام فى القرآن عنواناً على الدين الإلهي الواحد الذي حمل مهمة تبليغه للناس جميع الأنبياء والمرسلين من آدم إلى محمد – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – . والأنبياء فى الإسلام – كما يقول محمد – إخوة لعلات ، أي : إخوة من أب واحد وأمهات شتى ، والأب الواحد فى هذه الصورة النبوية يرمز للدين الواحد الذى ينتسب إليه الأنبياء ، أما تعدد الأمهات فيرمز إلى تعدد شرائع الأنبياء واختلافها حسب تطورات الزمان والمكان .. وانظروا كيف يسجل القرآن أنه جاء مصدقاً للتوراة والإنجيل ، ويصف كلاً منهما بأنه : هدى ونور ، بل انظروا صلة الرحم المدهشة بين محتوى الإسلام كدين ، وبين محتويات الرسالات السابقة فى الخطاب القرآني الذى يقول : " شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ " (سورة الشورى – آية 13) .

ومادام الدين واحد ، والمصدر واحداً فمن المستحيل ألا تتفق الأديان وتتداعى حول أصول عامة وقواعد مشتركة تكون بمثابة الشعلة التى يحملها الأنبياء ، ويتداولونها واحداً وراء الآخر .. وليس صحيحاً ما يشغب به الغافلون عن هذه الحقيقة من أن ما يوجد فى القرآن من أشباه ونظائر فى الكتب الإلهية السابقة هو أخذ واقتباس من هذه الكتب ، ولو أنهم فطنوا إلى وحدة الدين الإلهي لتنبهوا إلى أن هذه الأشباه والنظائر برهان على وحدة المصدر ووحدة

الخطاب الإلهي فى القضايا الكبرى التى تثبت على وجه الزمان ، وليست – كما زعموا – دليلاً على فرقة هذه الكتب ، واقتباس أحدها من الآخر .. ونحن – المسلمين – نعتقد تمام الاعتقاد أن الرسالات الإلهية متفقة فى قضية عقيدة التوحيد ، وأيضاً فى أمهات الفضائل والأخلاق ، وأن شيئاً من ذلك لا يتصور أن يختلف من رسالة إلى أخرى من رسالات الدين الواحد .. فالوصايا العشر التى وردت فى سفر الخروج – مثلاً – لا يعييك أن تجدها مذكورة ومبثوثة فى آيات القرآن الكريم ، وكذلك عظة السيد المسيح – عليه السلام – على الجبل ، وما جاء بها من بيان معنى السعادة ، والبر والصدقة والزهد ، وبشرى الفقراء والودعاء والرحماء والمحزونين والساعين لنشر السلام .

أيها السادة !

ما أشبه الليلة بالبارحة ! فمنذ أكثر من 70 عاماً ، كتب الأستاذ الإمام المراغي شيخ الأزهر الشريف آنذاك ، رسالة بعنوان " الزمالة العالمية " أرسل بها إلى المؤتمر العالمي للأديان والذي عقد فى لندن عام 1936 ، بيّن فيه أسباب الفرقة والاختلاف ، ولفت النظر فيه إلى سبب هام من أسباب الصراعات العالمية ، هو استغلال الأديان ، وبيعها وشراؤها فى سوق السياسات والصراعات ، وكان يرى أن الحياة المادية تغلبت على الدين وتحكمت فيه وعبثت به ، وأن البداية الصحيحة هى بعث الزمالة الدينية أولاً بين رؤساء الأديان أنفسهم ، " فهم أقدر من غيرهم على إدراك هذه المعاني السامية ، وأولى الناس بأن يفهموا أن الخطر الذى يداهم الإنسانية لا يجيئ من أديان المخالفين ، وإنما يجيئ من الإلحاد ، ومن الفلسفات التي تقدس المادة وتعبدها ، وتستهين بتعاليم الأديان ، وتعدها هزؤاً ولعباً " (2) .

وقد اقترح الأستاذ الإمام المراغي خطة محددة لتفعيل برنامج " الزمالة العالمية " هذه ، وحدّد لها الوسائل والآليات منها :

2- رسالة الأستاذ الإمام الشيخ المراغي للمؤتمر العالمي للأديان مجلة الأزهر ، مجلد 7 ، 1936 ص 306 .

أولاً : إيجاد هيئة تعمل على تنقية الشعور الديني من الضغائن والأحقاد ، ويتوصل إلى ذلك بأمور :

- توجيه النشاط الديني فى الأديان المختلفة إلى هذا الاتجاه الإنساني ، بدلاً من توجيهه صوب الصراع بين الأديان والمتدينين .
- جمع المعاني الإنسانية السامية العامة فى كل دين ، من الرفق بالبشر ، والبّر بهم ، دون نظر إلى الفوارق التى تفرق بينهم . وإذاعة ذلك بمختلف الوسائل فى مختلف اللغات .
- الاعتماد فى نشر هذه المعاني العامة ، على أساس عقلي محض ، وحب للحقيقة ، مع تجنب الاعتماد على وسائل غير بريئة فى توجيه الاعتقاد أو الإغراء به .

ثانياً : إيجاد هيئة تقوم بتقوية الشعور الديني لدى الطبقات المستنيرة ، حتى يمكن تدعيم مراكز التدين أمام البحث العلمي والتفكير الحر ، تدعيماً يتأيد بمقابلة الدليل بالدليل ، والبعد عن التضليل وعن الركون إلى السلطة الروحية المستبدة ، وبالجملة : البعد عن الأخطاء الماضية التى دفعت الإنسانية ثمنها باهظاً ومرهقاً . (3)

هذه هي رسالة الأزهر الشريف إلى مؤتمر لندن للحوار العالمي للأديان ، منذ سبعين عاماً مضت .. ورغم أن العالم قد تغير الآن كثيراً فإنه لازال أمس حاجة إلى روح هذه الرسالة التى تشهد على عالمية الأزهر الشريف ، وأنه – منذ القدم – يحمل هم البشرية كلها ، ويستجيب لكل دعوة جادة تهتم بنشر السلام العالمي المؤسس على العدل ، واحترام حقوق الإنسان ، والمساواة بين الناس ، وأن الأزهر فى كل ذلك ينطلق من أن الأغراض الإنسانية حين تتغياها مؤتمرات حوار الأديان لا تنافي قواعد الإسلام العامة ، إن لم تكن من أهم مقاصده وأغراضه .

3- المصدر السابق 308 – 309 (بتصرف) .

أيهـا السـادة ! :

أنا ممن يؤمنون بحاجة الإنسانية الشديدة إلى هدى السماء وإلى نور النبوة ، وحكمة الكتب المقدسة ، وفى اعتقادي أن خلاص البشرية من أمراضها الحديثة – وفى مقدمتها مرض العمى عن الحقيقة – وازدواجية المعايير لم يعد رهن أي تقدم مادي أو رقي تكنولوجي ، بل هو – فيما أتيقن – رهن تقدم روحي وأخلاقي ، تلعب فيه " الأديان " دور المنقذ .

****

شكـــراً لحسن استماعكم

أ.د / أحمـد الطيب

رئيس جامعة الأزهر